قراءة في كتاب:

هذا هو تاريخ اليمن

للأستاذ عبدالله الكميم

عندما صدر المجلد الأول من مؤلف الأستاذ عبدالله علي الكميم (هذا هو تاريخ اليمن) من دار زهران للنشر والتوزيع بعمان الأردن، في سنة ٢٠٠٢م كان العنوان محل نقد، فعندما يكون العنوان شاملا كهذا فمعناه أن كل ما يتعلق بتاريخ اليمن سيجده الباحث بين دفتي المجلد، وهذا غير ممكن في الواقع بل وغير منطقي، لهذا كان يقال لو أن الكميم حصر العنوان في (جزء من تاريخ اليمن) أو (شيء من تاريخ اليمن) كما فعل المؤرخون الآخرون ومنهم الأستاذ مطهر الإرياني الذي كان عنوان كتابه التاريخي(في تاريخ اليمن) أو كما عنون يوسف محمد عبدالله كتابه التاريخي (أوراق في تاريخ اليمن وآثاره) المهم أن لا يكون العنوان شاملا كما فعل عبدالله الكميم أو عبدالله الثور في كتابه (هذه هي اليمن الأرض والإنسان والتاريخ)، فإن أي مؤرخ لا يستطيع أن يلم بتاريخ اليمن أو حتى مدينة من اليمن في مؤلف مهما بلغت أجزاؤه أو مجلداته فما بالنا بتاريخه وجغرافيته معا، فهل لدى الأستاذ الكميم ما يبرر سبب اختياره لهذا الاسم الشامل؟

استراتيجية المؤلف

وعندما صدرت الطبعة الثانية للمجلد الأول مع الطبعة الأولى للمجلدين الثاني والثالث في السنة الماضية 2007 صدرت كل مجموعة في ثلاثة أجزاء، فصار لدينا تسعة أجزاء، تحتوي على 4250 صفحة من القطع الكبير، وفي هذه الطبعة أضاف المؤلف إلى اسم الكتاب بين قوسين كلمة (الإرهاصات) وهذا يعني أن الثلاثة المجلدات بأكملها لا تمثل إلا المقدمة من تاريخ اليمن، أو الإرهاصات، أما تاريخ اليمن فإنه سيأتي بعد الإرهاصات، الآن نستطيع القول أن المؤلف كان موفقا بإضافة كلمة الإرهاصات، فإذا كانت التسعة ألأجزاء التي مجموع صفحاتها 4250 صفحة لا تعني سوى الإرهاصات التي أخذت من عمر المؤلف ما يقارب خمس وثلاثين سنة فلا شك أن العمل القادم سيكون أوسع وسيأخذ عمرا أطول، وبالتالي فسنكون أمام موسوعة عن تاريخ اليمن، وقد وعدنا المؤلف أن المجلد الرابع سيبتدئ من تاريخ وحضارة قحطان الذي ينسب معظم اليمنيين إليه، وهنا نستطيع أن نتنبأ بأن العمل سيكون أوسع من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، وأشمل من كتاب الإكليل للهمداني، فإذا كانت مقدمة ابن خلدون في جزأين فإن مقدمة الكميم في تسعة أجزاء، بل إن إرهاصات الكميم أكبر حجما من إكليل الهمداني بأجمعه فلو طبعنا الإكليل بأجزائه العشرة بنفس مواصفات طباعة إرهاصات الكميم لما وصل الإكليل إلى نصف حجم الإرهاصات لأن كل جزء من الإكليل يحتوي صفحات قليلة لو جردناها من المقدمة والهوامش والفهارس التي ألحقها المحقق بأجزاء الإكليل.

وعندما نجد أن المقدمة (الإرهاصات) احتوت على تسعة أجزاء فهذا يعني أن الأستاذ الكميم قد وضع لنفسه استراتيجية طويلة الأمد تحتاج إلى وقت وجهد وتأن وصبر، فالآتي بعد الإرهاصات هو اللب، وهكذا هي الأعمال الناجحة يتم تحديد مداها من نقطة الصفر إلى نقطة النهاية، ورغم أن المسافة التاريخية بين النقطتين طويلة طويلة إلا أن مؤرخنا كان عند مستوى التحدي، نقول ذلك مستندين إلى ما قد وصل إلى بين أيدينا (تسعة أجزاء لا تمثل سوى الإرهاصات؟!!)، ولهذا فإن تاريخ الكميم سيكون أكبر حجما من تاريخ الهمداني ومن تاريخ ابن خدون، وما علينا إلا أن ندعو الله أن يمد في عمر مؤرخنا ويمنحه الصحة ليكمل مشروعه الاستراتيجي، فالذي يخوفنا هو أن يعيقه عائق قهري أما المعوقات الأخرى فهو قادر على اجتيازها.

المحتوى

هذا هو تاريخ اليمن (الإرهاصات) ضم في مجلداته الثلاثة أربعة عشر بابا وستة وخمسين فصلا، ففي المجلد الأول نجد مقدمة وصلت صفحاتها إلى أكثر من ستين صفحة يوضح بها كيف كان متخوفا من الولوج لدراسة تاريخ اليمن نتيجة لاضطراب وتناقضات ما هو مكتوب منه، ويسترسل في المقدمة إلى أن يصل إلى ما يجب على الدولة نحو جمع تاريخ اليمن والحفاظ عليه، ومن المقدمة ندخل من الباب الأول إلى فصوله السبعة التي هي عبارة عن مدخل عن الكون والإنسان، والباب الثاني بفصوله الثمانية عن اليمن، ففي الفصل الثالث منه المكون من 120 صفحة يؤكد المؤلف فيها يمنية (ذي القرنين) شعرا ونثرا، ويصل إلى تحديد اسمه فهو عنده كما هو عند الهمداني ونشوان الحميري(الهميسع بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان) ويتطرق في الفصل الخامس إلى ذكر ما ورد في التوراة عن اليمن واليمنيين ص 570، ففي التوراة ما يؤكد نسب قحطان إلى هود ثم ذكر حضرموت وخولان وسبأ وعدن وبئر علي، ومنه نجد ما يبين العلاقة التجارية بين اليمنيين وبني إسرائيل، ونحن هنا نتفق مع الباحث على أن هذه المؤشرات التاريخية تحتاج إلى بحوث مستقلة وهو بهذا قد فتح لطلاب الدراسات العليا أبوابا جديدة ترشدهم إلى ما يمكن أن يختاروا في مجال أبحاثهم ورسائلهم. فالرجوع إلى التوراة لاستلال ما يخص اليمن ميزة انفرد بها كتابنا هذا، وفي الفصل السابع يستنتج استباق اليمنيين لغيرهم في زراعة الحبوب واستئناس الحيوانات واختراع الكتابة، أما الفصل الثامن فيثبت استباق اليمنيين في تدوين تاريخهم، وبناء القصور، وفي الباب الثالث قدم لنا دراسة ضافية عن تسعة وتسعين قصرا من قصور اليمن، والباب الرابع يحدثنا عن سبعمائة سد من سدود اليمن وما يتعلق بها، وقد احتوى هذه الأبواب الأربعة المجلد الأول الذي لم ينفصل فيه الزمان عن المكان.

محمد صالح البخيتي

أما المجلد الثاني فقد خصص بابه الأول بفصوله الأحد عشر (وهو الخامس) في الترتيب العام، لقوم عاد، والباب الثاني لقوم ثمود وفيه ثلاثة فصول، فعاد وثمود بأنبيائهم ومدنهم وقصورهم وأخبارهم وعجائبهم لا يشكلون سوى جزء بسيط من التاريخ اليمني، أما الباب الثالث بفصوله الخمسة فقد خصص لمتابعة جديد الأبحاث في علاقة تاريخ اليمن بالقرن الإفريقي والحضارة المصرية ومنه يصل إلى عاد الأولى وعاد الثانية ويستنتج من كل ذلك ضرورة إعادة النظر في تاريخ اليمن المكتوب، وجاء الباب الرابع وهو عبارة عن براهين دامغة عن العمق الزمني لتاريخ اليمن وصلت إلى ستة وستين برهانا تاريخيا، ويختتمه بتعليقات هامة عن البراهين ثم ملحق للصور التي ربط ما ترمز إليه كل صورة ببيت شعري من إحدى الدوامغ.

وعندما نصل إلى المجلد الثالث بأجزائه الثلاثة وأبوابه الستة فسنجد له مقدمة ضافية عن الدكتور طه حسين وتقولاته عن عروبة اليمن، أما الباب الأول وهو التاسع في الترتيب العام فهو عن علم اللغة بفصوله الخمسة الذي تتبع نشأة اللغة وأصلها وعلمها وتطورها، ثم الباب الثاني عن الكتابة العربية بالحرف والرقم والمسند، لنصل إلى الباب الثالث المخصص عن عروبة اليمن والقرآن وهو في ثمانية فصول جله في الرد على الدكتور طه حسين، والباب الرابع خصصه المؤلف بفصوله الأربعة عن الشعر العربي في اليمن والحق به قائمة تضم 197 من شعراء وخطباء اليمن في عصر ما قبل الإسلام، ثم ترجم لعدد اثنين وعشرين من الشعراء والخطباء والحكماء اليمانيين، ويصل إلى باكورة اكتشاف كنوز الشعر اليمني المكتوب بالخط المسند وهي القصيدة التي أكتشفها الدكتور يوسف محمد عبدالله التي أطلق عليها قصيدة (ترنيمة الشمس) وقد خصص الكميم لكلماتها ومعانيها ودراستها وشرح مفرداتها ثلاثة فصول في الفصل الثاني والثالث والرابع، أما الفصل الخامس فخصصه للشعر اليمني القديم باللغة الفصحى

قدم العلم

فإذا وصلنا إلى الباب السادس والأخير وهو الباب الرابع عشر في الترتيب العام فهو أهم الأبواب في نظرنا لأن فصوله الستة متعلقة بموضوع طالما شغل المؤرخين والسياسيين معا، لأنه اهتم بعلاقة الجنوبيين مع الشماليين في الجزيرة العربية (القحطانيين والعدنانيين) ففيه يبين المؤرخ مستندا إلى صفة جزيرة العرب تنازع اليمنيين من مراد مذحج مع ثقيف على أرض الطائف والحساسية المفرطة التي تولدت بين المهاجرين والأنصار التي وصلت إلى حد توزيع الغنائم بعد أحد الغزوات على قريش ليعود الأنصار مقتنعين بعودة رسول الله إلى المدينة قائلين (رضينا برسول الله قسما وحضا) وانعكست بعد وفاة الرسول وبالذات في عهد بني أمية إلى حقد قرشيا على كلما هو يمني حتى وصل فعلها إلى التلاعب بألفاظ القرآن الكريم وحروفه السبعة فما بالك بالأحاديث النبوية التي جعل أحدها المبشرين بالجنة جميعهم من قريش فلم يدخل بينهم أنصاريا واحدا، ولقد كان لاشتراك الأنصار والهاشميين في ظلم قريش أثرا في تشيع اليمنيين مع الهاشميين لشعورهم بمشاركتهم في عداوة قريش فكل منهم ظلم من قريش، ويصل بنا إلى الاجتهاد في ترتيب سور القرآن في مصاحف بعض الصحابة، وإلى أول اغتيال سياسي في الإسلام الذي نفذ في سعد بن عبادة الأنصاري وادعاء أن الجن هم الذين قتلوه لأنه بال قائما، والحقيقة لأنه طلب الخلافة له بعد محمد أولا، ثم رفضه مبايعة أبي بكر وبعده عمر بن الخطاب، ووصل الأمر بقريش إلى انتحال شعر باسم الجن في مقتله يعترفون فيه بمقتل سعد ابن عبادة:

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
ورميناه بسهمين فلم تخطئ فؤاده

فكان سعد ابن عبادة أول ضحية من ضحايا الصراع السياسي والتنافس الاقليمي والطائفي من قادة الفكر اليمنيين، ويواصل المؤرخ دراسته عن ضحايا يمنيين آخرين كعمرو بن معد كرب الزبيدي وحجر بن عدي وأعشى همدان والأشتر النخعي وخالد بن عبدالله القسري وعبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ويزيد بن المفرغ الحميري ويختتم فصل ضحايا الصراع بمصرع دعبل بن علي الخزاعي. وكما اختتم المجلد الثاني بملحق للخرائط والصور والنقوش المسنودة بأبيات الدامغة اختتم كذلك المجلد الثالث بملحق الصور وذيل كل صورة ببيت شعري.

وملحق آخر بالمراجع الهامة التي استند إليها والتي وصلت إلى أكثر من أربعمائة مرجع.

الإرهاصات تناولت الزمن الغابر من تاريخ اليمن من عهد آدم الذي توقف عنده المؤلف مع تساؤل عبدالوهاب النجار صاحب كتاب (قصص الأنبياء) حول حقيقة أن آدم هذا هو أول البشر، ومنه إلى قوم عاد وقوم ثمود، وما استدعى الموضوع التطرق إليه وإن كان مرتبطا بالعصر الإسلامي إلا أن المجلدات القادمة ستعود بنا إلى عصر قحطان بن هود.

الفترة القديمة التي تناولها المؤلف لم يسبقه أحد إليها على حد علمي، ولهذا كانت مراجعه عن دراسة عاد وثمود محصورة في آيات القرآن الكريم، لأن أكثر من ثلثيه تحكي قصص وسير الأولين وسنن الغابرين فمعظم آيات القرآن آيات تاريخية لأخذ العبرة من عاد وثمود وقوم صالح وقوم هود ... . فكم وقف المؤلف من وقفات مستشهدا بقوله تعالى (أتبنون بكل ريع آية تعبثون؟)

ملاحظات عابرة

الكتاب بشكل عام لا غنى لأي باحث في التاريخ عنه ففيه لوحده ما لا يمكن أن نجده في كتب متفرقة، لكن يمكن أن نلخص ملاحظاتنا عليه وهي ملاحظات شكلية لا تقلل من قيمته العلمية في ما يلي:

فأولا أنه تكرر تناول عدة موضوعات في أكثر من باب فعلى سبيل المثال تناول اللغة في المجلد الأول في 116 صفحة ثم عاد لتناولها في باب كامل من المجلد الثالث في حوالي 361 صفحة، وهنا نعتقد أن من الأفضل تناول اللغة كجزء لا يتجزأ، كذلك تناول طه حسين في أكثر من جزء، ومثل ذلك كرر موضوع تنازع مراد وثقيف أمام رسول الله على أرض الطائف، في الجزء الثاني من المجلد الأول (ص 58) والجزء الثالث من المجلد الثالث (ص 100) فهل كان من الأفضل أن يتناولها بشكل مفصل في مكان واحد؟ وإذا احتاج إلى الاستشهاد بذلك فيشير إلى ما سبق أن دونه لا بتكرار التدوين.

وعلى ما أعتقد فإن كتابة التاريخ يجب أن تأتي مرتبة زمنيا من الأقدم إلى الأحدث وهذا ما اتبعه المؤلف إلا أن فيه قفزات من عصر إلى عصر، ويمكن الاستشهاد على ذلك بقوله أن المجلد الرابع الذي لم يأت بعد سينقلنا إلى عصر قحطان بن هود فيما كان قد وصل في المجلد الثالث الجزء الثالث إلى عصر بني أمية.

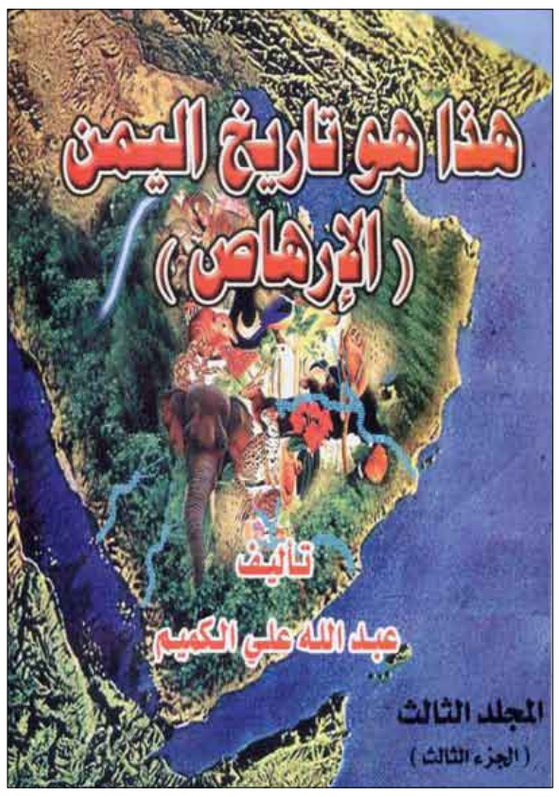

■ غلاف الكتاب

من سيقرأ الكتاب؟

لأن الكتاب غير مدعوم فإن ورقه وطباعته كانت شبه شعبية ورغم ذلك فإن ثمنه مجتمعا باثني عشر ألف ريال يعتبر مرتفعا بالنسبة لمستوى دخل المواطنين اليمنيين ودرجة اهتمامهم بالقراءة، كما أن شرط شرائه كاملا يعيق الحصول عليه، فلو توفر شراء كل جزء على حدة لكان الإقبال على شرائه أكثر، وهذا ما فعله سنان أبو لحوم في بيع مذكراته، فرغم أنها متسلسلة تاريخيا إلا أن كل جزء من الثلاثة يباع بمفرده، ولهذا فإن إمكانية اقتناء التسعة الأجزاء في وقت واحد سيكون مقصورا على الميسورين، والميسورون عادة لا يقرؤون لأن اهتماماتهم مادية، ولأنهم لا يقرؤون فإن الكتاب سيكون مقصورا على الميسورين من هواة ومحترفي كتابة التاريخ اليمني وهم قلة قليلة بين المواطنين، أما الباحثون وهم دائما من طلاب الجامعات والدراسات العليا فإنهم غير قادرين على الحصول عليه إلا من خلال المكتبات العامة، وكان الأجدر بوزارة الثقافة أن تتولى طباعته وبيعه بسعر أقل بدلا من تبنيها طباعة ما هو أقل أهمية منه، لكن مهما تجاهلت الجهات المختصة مثل هذه الأعمال الكبيرة وحرمت الجيل الحاضر من الحصول عليها، فإن فائدتها ليست وقتية، فالسِّفر هذا ليس لهذه الفترة فحسب بل إنه للأجيال القادمة، فكتب التاريخ الهامة غير المنحازة لحاكم الفترة لا تقرأ عادة في زمن مؤلفيها ولا تقرأ إلا بعد مئات السنين فحينئذ فقط يعرف المجتمع أهميتها، فهل اشتهرت كتب المؤرخين اليمنيين في زمنهم كمؤلفات الهمداني ونشوان الحميري وابن خلدون وابن الديبع ويحيى بن الحسين والجرموزي والقرمطي وشرف الدين عيسى والموزعي والنهروالي وابن داعر وجحاف وغيرهم من المؤرخين اليمنيين؟ بالتأكيد سيكون الجواب بالنفي فهي اليوم مشهورة ومطلوبة أكثر من أيام إنتاجها لأن الإنسان بطبعه يحن إلى ماضيه المجهول أكثر من حاضره المشاهد.

وأخيرا يمكننا القول في هذه العجالة أن الكتاب قد تناول مواضيع شتى تاريخية وجغرافية وأدبية ودينية... تحت عنوان واحد، (هذا هو تاريخ اليمن) فالتاريخ لدى الكميم لم يعد سردا للأحداث التاريخية فحسب بل إنه تاريخ لكل مناحي الحياة اليمنية، ويمكن أن يجعل الكاتب من السِّفر بأكمله عدة كتب في مجالات مختلفة، فيمكن أن يخصص كتاب للرد على طه حسين وكتاب عن ذي القرنين، وكتاب لعلاقة المهاجرين بالأنصار، وكتاب عن اللغة والكتابة، وكتاب عن عاد وثمود، وكتاب عن قصور اليمن وكتاب عن أسدادها، إلى آخره ... كسلسلة متتالية كل حلقة منفصلة عن الأخرى بدلا من طرحها متشابكة تحت عنوان واحد، فهل يكون الوضع بهذه الطريقة أسهل للكاتب وللقارئ؟، هذا ما رجحته بعد قراءة سريعة لما احتواه كتاب(هذا هو تاريخ اليمن) لكن ربما تكشف المجلدات القادمة عدم إدراكنا لخطة المؤرخ واستراتيجيته.

يهود عدن THE JEWS OF ADEN

هـذا المقـال ملخص لترجمة كتاب تحت عنـوان يهود عدن THE JEWS OF ADEN وهو كتـاب أخرجه وأصدره فريق مشترك من متحف وناد ثقافي بلندن..في أبريل ١٩٩١ والمتحف هو متحف لندني يعنى بحياة اليهود وتاريخهم London Museum of Jewish Life. حيث تشـكل الفريق من رئيس تحرير، كمشـرف مراجع هو السـيد ريكـي بورمان، والكاتبة الباحثة (شـونا بلاس) كاتبة النص، بالإضافة إلى أعضاء آخرين، من عدة أسـر يهودية بلندن، أمدوا الباحثة بمادة مؤثرة، وثائقية ومسجلة .

إذ يروي شـاهد من شـهود يهود عدن أن الضباط الإنجليز قاموا جنباً إلى جنب مع جنودهم من جيش المحمية (الليوي) بالبـدء بإطـلاق النار على يهود عدن المدنيين في منازلهم بعد منتصف الليل وليس المواطنون اليمنيون هم الذين بدؤوا بالاعتداء كما يظن البعض.

وتلقى في الكتاب علاقة التسـامح الديني والود الذي كان قائمـاً بين المواطنين اليمنيين والجماعة اليهودية، حيث كان اليمنيون يقدمون الهدايا إلى اليهود في أعياد اليهود الدينية وبعض المناسبات.

وفي الكتاب نتعرف على الشـاعر اليهودي اليمني الشـهير بالشـبزي، بالإضافة نبذة تاريخية عن بدء استقرار اليهود في اليمن ونشاطهم التجاري.

استقرار ونمو السكان اليهود

بناء على الرواية التاريخية، فإن استقرار اليهود في جنوب بلاد العرب يمكن إرجاعه إلى ما قبل عام 2000م، وذلك إلى تاريخ هدم المعبد الأول في القدس، ومع ذلك فإن التسجيلات الأثرية المادية تؤرخ لنا حياة اليهود في عدن منذ فترة القرون الوسطى.

بل إن عددا من شواهد القبول في عدن يسجل تاريخه في القرن الثاني عشر الميلادي، كما أن 150 مخطوط أو وثيقة من وثائق الجنيزا في القاهرة تشهد بوجود جماعة يهودية لها دورها المزدهر في ذلك العصر في عدن واليمن.

وخلال ذلك العصر أيضا اتصل يهود اليمن بالجماعات اليهودية الأخرى عبر عدن، فقد اشتهر العدني اليهودي أبو علي حسن بن بندر باللقب اليهودي (سارها كهيلوت) أي رئيس التجمعات اليهودية الدينية، في إشارة بذلك إلى أنه رئيس الجماعات اليهودية في عدن واليمن.

وقد لعب يهود عدن دوراً مميزاً في العلاقات اليهودية العالمية خلال تلك الفترة، وكانت لهم غالباً روابط دينية واجتماعية مع جميع الجماعات الأخرى، في نطاق الامبراطورية الإسلامية، وخضع التجار والحرفيون اليهود إلى أكثر من عشرين ميناءً مختلفاً في الهند وسيلان للمجلس القضائي اليهودي بعدن (محكمة عدن الحاخامية).

وقد عرف يهود عدن بأنهم مولعون بالكتب العبرية، وأسهموا بشكل منتظم في العناية بالأكاديميات الدينية في العراق وفلسطين، مزودين إياها بتلك الكتب بما فيها أعمال بن ميمون والتي تسمى (الميمونايدز).

وقد ازدهر كيان يهود عدن خلال القرن السادس عشر الميلادي، ولم يشكل حلول الأتراك العثمانيين بعدن بدلاً من السلطة المحلية عام 1538م، أي ضرر عليهم، أو أن ذلك لم يؤثر عليهم بشكل سيء. ومع ذلك فقد ساءت التجارة وانخفضت إلى أقصى حد في القرن الثامن عشر تحت حكم السلطان القبلي في لحج، وتردت عدن إلى أسوأ حال واضمحلال.

ومع تطور عدن تحت الحكم البريطاني كان تعداد السكان اليهود قد ارتفع باطراد إلى 2000 نسمة عام 1872 وإلى 3700 عام 1916 ومعظم اليهود الذين انتقلوا إلى عدن خلال تلك الفترة جاءوا من المخا وهو ميناء في اليمن وقد كانوا يعانون من الأوضاع القاسية المفروضة عليهم من قبل إمام اليمن. ومع الاحتلال البريطاني انتقلوا إلى الساحل الجنوبي محافظين على تجارتهم. وآخرون جاءوا من الهند ومن الشرق الأوسط. ومع بداية القرن العشرين، صارت كثير من الحرف اليدوية ليهود عدن بالية وعتيقة، فقد هجرت تلك الأعمال واستبدلت بها أعمال تجارية صغيرة وحديثة.

مجتمع كريتر (الحي الأقدم بعدن)

في مطلع القرن العشرين، تركزت إقامة اليهود في أقدم جزء من المدينة، وفي منطقة تعرف بكريتر، الواقعة في نطاق بركان هامد، وتطل على خليج عدن.

وقد حفر البريطانيون نفقاً عبر الجبل رابطين كريتر بالمركز التجاري حول ميناء التواهي، حيث كان يعمل كثير من اليهود في حي يهودي مكون من أربعة شوارع رئيسية مرقمة ومسماة بنفس الأرقام المعطاة لها من 1 – 4 .

إن الجماعة اليهودية كانت مرؤوسة برئيس يسمى (ناسي) وهذا لم يكن وضعاً مخيراً، بل مفروضاً من قبل أعضاء أسرة موسى الثرية ذات النفوذ، المؤثرة بشكل كبير في الجماعة، وكانوا معروفين باسم عبري، ربما (رؤساء الشرق) وكان على هذا الرئيس مثلاً أن يمثل جماعته أمام السلطات البريطانية، وأن يساهم في الإنفاق المالي للعناية بالجماعة، كما أن على هذا الرئيس أن يوفر التعليم والسكن للذين هم من دون سكن، والطعام للفقراء، وإعانة الجمعيات أو المنظمات الخيرية، والمعابد والأهم من ذلك بيت دين.

وأما عائلة موسى هذه فقد كانت مسؤولة عن تأسيس واستقرار وتسيير معبد عدن الكبير والمدارس اليهودية والمستشفى.

كما أنه وجد – ولوقت قصير – في خلال الأربعينيات والخمسينات مجلس أنشئ ليمثل مصالح المجتمع اليهودي، أو الجالية اليهودية في باقي المجتمع الواسع، وكان هذا المجلس يتكون من أولئك الذين يملكون الشخصية القوية، والخلفية الدراسية والثقافية التي تمكنهم من تمثيل مجتمعهم الخاص بشكل أفضل.

ترجمة: جبران شمسان

عشنا في عدن حياة رغدة رائعة وممتعة ..!

يقول أحد يهود عدن في ذكرياته عن عدن: " لقد كانت عدن عالماً مختلفاً، عالماً خاصاً بهذا القرن الأخير (العشرين) ولكن في الجانب الآخر عاش الناس في عدن حياة رغدة طيبة؛ بالرغم من أن بعض الناس كانوا فقراء جداً، إلا أنهم عاشوا في راحة، الطعام كان دائماً متوفراً ورخيصاً، الطقس كان جميلاً، لقد كانت حياتنا رائعة ممتعة ومدهشة، ونحن لا زلنا نتذكر عدن، نظراً للحياة الطيبة التي عشناها هناك.

ويسترجع مقيم يهودي سابق في عدن ذاكرته قائلاً: " لم يكن شيئاً غالياً في عدن بما في ذلك السيارات. لقد كانت حياة ميسرة سهلة؛ لأنها كانت منطقة حرة خالية من الضرائب، وكانت مركزاً كبيراً للسياح. وكان الركاب ينزلون من السفن إلى التواهي لشراء الأشياء – غالباً من محلات اليهود – وعندما كانت أية سفينة ركاب ترسو فإن أصحاب المحلات يفتحون محلاتهم بغض النظر عن الوقت ليلاً أو نهاراً".

الدين

يقول أحدهم واصفاً الحياة الدينية اليهودية في عدن: "لقد كان مجتمعاً أكثر تقارباً ومودة، كان مجتمعاً دينياً حقيقياً، كنا نحاول أن لا نعمل شيئاً ملفتاً بارزاً يشعر به الجيران، لا يبدؤوا بالتحدث عنها على أننا نبدو مختلفين عنهم. كان عليك أن لا تبدو شاذاً مختلفاً عنهم، كنا نحس بالخجل والاستحياء أن نظهر مختلفين عنهم. كنا مجتمعاً غير حر إلى حد ما. إلا أننا كنا مترابطين فيما بيننا، إذا مات أحد منا اهتز لأجله الجميع.."

كان الدين هو المبدأ الرئيسي لوجود الجماعة اليهودية في عدن، وقد شكل هذا المبدأ الرابط صورة اليوم والعام ودورة الحياة. وقد عاش الجميع في طقوسهم وشعائرهم الدينية بالكامل.

(بيت دين) كان يشكل أقوى هيئة في المجتمع، فيه كان (الشاخط) أي الذباح الديني اليهودي يذبح البهائم لتأمين أن أكلها مباح حسب الطريقة والشريعة اليهودية، أما الدراسة الدينية فكانت جزءاً مهماً كاملاً من حياة كل طفل.

■ يهود عدن قبل رحيلهم

كان يوجد ستة عشر إلى عشرة معابد في عدن، أما المعبد الرئيس اسمه (ماجن أبراهام) كان من أروع المعابد في العالم وأفخمها، كان يستوعب ألفاً من الناس، وأما مكتبته الدينية التي لها زاوية في المعبد وتسمى عادة (تابوت العهد الذي يحوي شريعة موسى) فتحتوي على 270 من أسفار التوراة، وقد بني هذا المعبد وفق تصميم لمعبد آخر كنموذج أصغر منه في الهند، وكان بناؤه حول بقايا معبد آخر سابق يعود تاريخه إلى عام 1856م.

لقد كان المعبد هو النقطة البؤرية، أي نقطة الارتكاز في مجتمع الجالية اليهودية، فبينما كان على كثير من الرجال الذهاب للصلاة والعبادة يومياً، فإن الجميع كانوا يذهبون إلى المعبد يوم السبت.

يقول أحدهم: " يوم السبت لم تكن لترى سيارة تمر في واحد من شوارعنا الأربعة، فقد كنا نذهب فيه إلى المعبد في الصباح، كنا نبدأ في حاولي الساعة السادسة صباحاً وننتهي في حوالى التاسعة أو التاسعة والنصف."

خمسة وتسعون بالمائة من يهود عدن كانوا يذهبون إلى المعبد يوم السبت، ومن المستحيل أنه كان يمكنك أن تجد محلاً تجارياً واحداً لليهود مفتوحاً سواء كان في الحي اليهودي أو في جزء آخر من المدينة عدن أو في التواهي.

كان يوم السبت يراعى بصرامة ودقة، ويتم الاحتفاء به، في الصباح كنا نذهب إلى المعبد، ثم بعد ذلك نذهب إلى شاطئ البحر، كنا نأخذ بعض الطعام معنا، ونستمتع بوقتنا حتى وقت متأخر من الليل، ثم نذهب لتناول العشاء في مطعم ذي خدمة ليلية" .

"وفي عام 1921م زار أمير ويلز (الذي أصبح فيما بعد الملك أدوارد الثامن) زار عدن وطلب أن يرى رئيس الجمع اليهودي بنين ميسا، ولكن لكون رئيس الجمع كان مشغولاً باحتفال يوم السبت، فقد كان غير قادر على الانتقال خمسة أميال من منزله إلى الميناء لهذا جاء الأمير بنفسه لمقابلته خارج المدرسة اليهودية."

هدايا العرب إلى اليهود في الأعياد والمناسبات

وفي صدد الاعياد الدينية والمناسبات التي لدى اليهود يقول أحدهم :

" أما العرب فإنهم لما كانوا يعرفون بحلول مناسبة (البيساخ) فإنهم يجلبون لنا كل شيء كهدايا، وبمجرد علم العرب بحلول (عيد السكوت) كانوا يقدمون لنا ما نسميه بالعبرية (الأتراج) و (اللولافيم) وكل شيء".

ويضيف آخر: " وأما خلال احتفالات (خجيم) في عدن فإنك إذا مشيت في الليل في الشارع اليهودي، سوف لن تسمع إلا الغناء الغناء في كل بيت..."

الموسيقى والغناء

كانت الموسيقى جزءاً كاملاً مهما في حياة اليهود في عدن. فالإبداع الفني والأناشيد والأغاني واكبت كل مناسبة دينية واحتفال. وانقسمت إلى نوعين:

الأناشيد الدينية أو الابتهالات والمتصلة بالصلاة والعبادات.

والأغاني التي اختصت بها النساء فقط في الجلسات النسائية الخاصة. هنا تقول إحداهن:" إنني أحب تقاليدنا في الغناء؛ لأن جدي وجدتي في الأسرة كانا مغنيين معروفين في عدن ، وكذلك كان والدي. ونوع الأغاني التي كانوا يغنونها كنا نرددها في كل مناسبة؛ كيوم السبت، وحفلات الأعراس و (البارميتزفة) 1 . لقد تعودنا على هذا اللون من الموسيقى والغناء، ونشأنا معه"

أما الأناشيد الدينية، فهي من كلمات شالوم الشبزي، وهو شخصية يهودية مقدسة عند اليهود من القرن السابع عشر، وقد ولد في شبز باليمن، وقد كان الشبزي بمثابة (صدّيق) (Tzaddick) – بتشديد الدال – أي ولياً صالحاً عند اليهود اليمنيين.

وفي الجزء الأول من القرن العشرين، كان يهود عدن يقضون أسابيع في السفر وهم يحجون إلى ضريحه. كان شاعراً بارزاً متفوقاً ومشهوراً، يمزج في كتابته الشعرية بين العربية والعبرية، وكذا تناول يهود اليمن وعدن قصائده وقاموا بتلحينها وأدائها، و بسرعان ما انتشرت قصائده وكان لها رواج شعبي واسع، وصارت جزءا متميزاً من التراث اليهودي في عدن وباقي اليمن.

أحداث ١٩٤٧م في عدن (من بدأ بالاعتداء ؟)

بينما نجد في أغلب الأحوال أن يهود وعرب عدن قد تعايشوا بسلام، فإن توترات سياسية عرضية كانت تحدث، والبارز منها في عامي 1920م و 1931م، ومع ذلك فإن أحداث الشغب المضادة لليهود، التي تشبت في 1947م كانت لا سابقة لها ولا مثيل من حيث الحدة والنطاق.

يروي أحد يهود عدن رواية مهمة حول هذا الحدث فيقول: "في الليلة الأولى لم يحدث شيء، جميع السكان اليهود كانوا بخير والكل في أمان. في اليوم الثاني شاهدنا شاحنات مليئة بجنود عرب يسمونهم الـ Apl (جنود الليوي) وكانوا جنوداً مدربين تدريباً ممتازا، وهكذا جاؤوا بأسلحتهم، وفرحنا أن الحكومة قد جاءت بهم لحمايتنا، ولن يحدث مكروه، وفي المساء سمعنا إطلاق النار بشكل متواصل قربنا، واستمر إطلاق النار حتى ظننا أن الجنود العرب – وكان ضباطهم إنجليزي – ظننا أنهم يطلقون النار على العرب الذي كانوا يحاولون مهاجمتنا، ولكن الجنود أنفسهم كانوا يطلقون النار عليها، أما الذي لم نكن نتوقعه فقد حدث، وهو أن الضابط الضباط الإنجليز كانوا إلى جانب الجنود في ذلك، ودهشنا كيف يفعلوا ذلك لقتلنا، وهم إنما جاءوا لحمايتنا .. !!..."

تمني العودة إلى عدن

وأخيرا هذه أقوال بعض ممن يحنون إلى عدن، ويتذكرون جمالها وطيبة أهلها، والعيش فيها، ويتمنون لو عادوا إليها – وهم يعيشون في لندن منذ مغادرتهم عدن :

"يهود عدن، حسناً أنهم يتوسعون الآن أكثر وأكثر، اعتقد أنه سيكون لهم مستقبل باهر في لندن، أنهم اليوم مستقرون، معتمدون على أنفسهم، وموحدون، وهم ليسوا من أولئك المغرورين الذي يفردون ريش أجنحتهم. ولا تزال لهم عاداتهم المحافظين عليها، حتى أطفالي الذين ولدوا في إنجلترا يتمتعون بالآداب والتهذيب والحياء والحجل تماما كما كنا في عدن، إنك لا يمكن أن تجد يهودياً عدوانياً هنا، فمعظمهم يكنون احتراما عظيما للآخرين".

و ختاما هذا قول وشهادة ممزوجة بالتاريخ والعاطفة والصدق والمعاناة لمفارقة عدن حيث يقول شاهد :

"إذا كنت استطيع العودة، سأفعل بكل ممنونية وطيب خاطر، إنني أتذكر الأشياء الجميلة فقط في عدن، طفولتي وأيام الدراسة وكل شيء".

في الكتاب المقدس عندما خرج اليهود من مصر وعاشوا في البرية، كانوا دائما يحنون إلى مصر، وذلك بالرغم من أنهم كانوا عبيداً هنا، فقد كانت لهم اللقمة الهنيئة، والطعام الجيد الذي تعودوا عليه، وينطبق هذا الشيء نفسه على عدن معنا نحن العدنيين اليهود، نحن دائما نشعر بأن عدن هي أجمل أيام حياتنا، وكل منا يتذكر عدن، عاشها أو ولد فيها، فسيظل يقول دائما، لا يوجد مكان في الدنيا مثل عدن...!".